مشكلات الحوار

وأثرها على النهوض الثقافي

:: دراسة نقدية ::

تأليف

د. أحمد إسماعيل أبو شنب

أستاذ مساعد - بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية الشريعة والقانون - جامعة قطر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فثمة مشكلات كثيرة تعترضنا في حياتنا وخاصة في أوقات الأزمات والخلافات والمحن تحتم علينا ضرورة التفكير والتدقيق والتمحيص، وإجراء القياسات العقلية، والاختبارات العلمية للتوصل إلى نتيجة منطقية وواقعية، تنم عن تفكير منهجي مفعم بالمقترحات، والحلول المنبثقة عن رؤية إسلامية يقينية.

وورود المشكلات أمر طبيعي يؤكد خصائص المجتمع البشري، ويؤكد إفتقاره إلى منهج يعصمه من الزلل، ولكن غير الطبيعي أن يجتمع المفكرون والعلماء والرواد على حلها فيخرجون، وقد علا بينهم صوت الخلاف، وتأصل الشقاق والفرقة..

ولعل من الأسباب التي أدت، أو تؤدي إلى هذا عدم تقدير الحوار كمنهج لحل النزاع، وعلاج المشكلات، وغياب الفهم الدقيق لثقافته وضوابطه، مع أن الحوار منهج إسلامي أقره القرآن الكريم، وطبقه الرسول -صلى الله عليه وسلم- في ممارساته العملية الدعوية.

فالمشكلة لا تكمن في المنهج الإسلامي، لأنه غني بالرؤى الحوارية، وإنما تكمن فيمن يتولى ريادة الحوار، ويتحمل مسئوليته على موائده.

إنها موائد تفتقر إلى رجال ينتصرون على الهوى ويتجردون من العصبية، ويخلصون للحق، لا للانتصار لهوى المذهب، ولا لجموح هوى النفس.

ولا مرية أن ثمة أسباباً متعددة أدت إلى هذه الأزمة، وفعّلت من خطورتها، مما جعلها تمثل أخطر إشكاليات الحوار.

ويبدو أن إلف روح الحوار لم يكن قد ترسخ في أذهان الكثيرين، وأن موائد الحوار التي عقدت للاتفاق سارت موائد فرقة، فمزقت أكثر مما أوصلت، وفرقت أكثر مما جمعت، وهذا جوهر المشكلة.

وقد رأيت أن يكون تناولي للقضية، وعلاجها على النحو التالي:

- تمهيد : وفيه معنى الحوار لغة واصطلاحاً ، مع تأملات في إطلاقات الحوار اللغوية وإطلاقاته في القرآن الكريم ، وبيان أن الاختلاف سنة إنسانية، وكذا بيان الحكمة الإلهية منه.
- المحور الأول : إشكاليات الحوار.
- المحور الثاني : في علاج المشكلة.

معتمداً في ذلك على المنهج النقدي ، كأحد أبرز مناهج البحث العلمي، وأهمها في البناء الفكري، وعلاج المشكلات، ومعالجة الواقع، وتوجيه النظرة المستقبلية في الحياة.

تمهيد

تعريف الحوار

انطلاقاً من القاعدة المنطقية القائلة: «معرفة الشيء فرع عن تصوره» نبحث عن تعريف الحوار في محاولة جادة لفهم طبيعته وحدوده وآفاقه، ومن منهجية البحث العلمي في التعريف مايلي:

١ - التعريف بقضية البحث لغة في مباحث اللغويين لنقف على مترادفاتها ومعانيها، ونحاول وضع تصور عام عن الوعاء الذي عنه انبثقت مادة «القضية» ، أي الحوار.

فالتعريف اللغوي هو أساس الانبثاق المعنوي ، وركيزة من ركائز الانطلاق الاصطلاحي والفكري.

٢ - التعريف بقضية البحث في اصطلاح العلماء ، وخاصة أهل الاختصاص ، ومحاولة الاستفادة برؤى وتصورات أهل الاختصاص المغاير في تكوين صورة كلية منطقية ، يتمثلها تعريف اصطلاحي متكامل لقضية البحث، لتحديد الأطر، والآفاق والأهداف، والمناهج والوسائل التي يجب الأخذ بها في المعالجة.

ولا يمكن أن تتكون رؤية اصطلاحية لقضية ما بعيداً عن إطار لغوي دقيق، ومفاهيم عقلية واضحة ، وضوابط شرعية واعية.

من ثم ننطلق من المعنى اللغوي لنؤسس لمعنى اصطلاحي دقيق ،

وسنتناول -بمشيئة الله تعالى- هذا فيمايأتي:

« الحوار » لغة :

وردت مادة «حور» التي اشتق منها مصطلح الحوار في اللغة بمعان متعددة تستخدم تارة في الماديات، وتارة أخرى في المعنويات .

ونحاول فيمايلي استيضاح ما يتعلق منها بموضوع«الحوار» وما يمكن أن يستفاد منه لاستجلاء مفهوم الحوار من إطلاقات أخرى.

جاءت مادة **«حور»** في معاجم اللغة على النحو الآتي:

(**«حار»** حوراً ، وحُوُراً : رجع.

وفي التنزيل: ﴿إنه ظن أن لَّن يَحُور﴾، ويقال حار إليه.

و«حار» الشيء : أي نقص.

ويقال : حار بعد ما كار ، نقص بعد ما زاد ، وأعوذ بالله تعالى من الحَوْر بعد الكور.

و «حار» الماء في الغدير: تردد ، ويقال: حار في أمره.

و«حار» : الثوب غسله وبيضه.

و«حَوَّرت» العين حوراً: اشتد بياضها وسوادها ، واستدارت حدقاتها ورقت جفونها وابيض ما حواليها(. . .).

و«أحار» الجواب أي رده. يقال ساله فلم يحر جواباً.

«حاوره» محاورة ، وحواراً: جاوبه وجادله.

و«حوَّر»: الشيء رجعه. ويقال حور الله فلاناً: خيبه ورجعه إلى النقص.

و«حوَّر» فلان الكلام: غيَّره.

«تحاوروا» : تراجعوا الكلام فيما بينهم.

«استحارَه»: استنطقه.

«الأحْوَري»: الأبيض الناعم.

« الحائر » : المتردد والمهزول.

« الحِوار » : حديث يجري بين شخصين أو أكثر في العمل القصصي، أو بين ممثلين ، أو أكثر على المسرح.

«الحَواري»: مبيض الثياب، والذي أخلص واختبر ونقي من كل عيب.

«الحُور» : النقص والهلاك. ويقال: إنه في حور وبور في نقص وتراجع.

«الحَوير» : يقال بينهما حوير: عداوة ومضادة. ويقال كلمته فما رد إلى حويرا: جواباً.

«المِحْور» : العُود من حديد أو غيره تدور عليه البكرة.

«المَحُور»: الجواب) [1]

تأملات في إطلاقات الحوار اللغوية :

عندما نتأمل المعنى اللغوي لمادة «حور» التي اشتق منها «الحوار» نجد أنه يدور حول عدة معان منها مايأتي:

١ - الجمال والحسن.

٢ - النقص بعد الزيادة.

٣ - إنشاء حوار بين طرفين يتردد فيه الكلام ، ويرجع من طرف إلى طرف حتى يستقر الأمر ، بقطع النظر عما إذا كان يستقر على قبول أو عدمه.

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص١ص٢٠٤، ٢٦ ط ٢/ ١٩٦٠م القاهرة.

٤ - اعتبار الحوار وسيلة من وسائل الإقناع.

٥ - كما يطلق بمعنى العداوة والمضادة ليحمل مفهوم الخصومة بين طرفين.

٦ - ومنه اشتق «المحور» : نقطة الارتكاز التي يدور حولها الشيء.

٧ - وإذا كان لاشتقاق مصطلح «الحوار» من مادة تدل في أحد اشتقاقاتها على الحسن ، فإن في ذلك إيماءة إلى أن يكون منطوياً في ذاته على الحسن، متمثلاً في الانصياع للحق ، وصوت العقل الصادق ، والحجة الواضحة والبرهان القاطع.

إنه ينبغي أن يجمع لا أن يفرق ، أن يهدي لا أن يضل ، أن تصدر عنه الآراء بروية وتؤدة لا باستشاطة وتعجل وغضب..

ولا يمنع هذا من أن يكون الحوار«ساخناً» كما يقال -وهذا لا يعيبه، بل يمتدحه، فسخونته تعبر عن جديته لا عن هزليته، ولا يقصد بها الشقاق والعناد.

٨ - إنه يتضمن مفهوم «الاحتواء»، وامتصاص غضب الآخرين، وقبول أفكارهم ورؤاهم ونقدها بعين ثاقبة ، ثم الاتفاق على ما يمكن أن يؤخذ منها في عين الاعتبار ، من مقدمات صادقة ، يتفق عليها الطرفان للتوصل إلى نقاط التقاء تمثل جسوراً يعبر من خلالها كل منهما إلى الآخر.

٩ - واشتقاقاً من مادة تدل في أحد اشتقاقاتها على «الرجوع» و«المراجعة» وتبادلية الحوار، تدل على أن الأصل فيه مراجعة النفس في موقفها من الأفكار، وقياس نضج الأفكار قياساً صحيحاً بعيداً عن التشنج والافتعال.

إطلاقات الحوار في القرآن الكريم :

وردت مادة «حور» في القرآن الكريم ببعض مشتقاتها و منها مايأتي:

١ - قول الله تعالى عن الصاحبين في سورة الكهف، وقد كفر أحدهما وبقي الآخر على عقيدته يحاوره ويحاول إقناعه ، ورده إلى الإيمان : ﴿فقال لِصاحِبِهِ وهوَ يُحاوِرُهُ أنَا أكثرُ مِنكَ مَالاً وأعزُّ نَفراً﴾ [١] ﴿قال له صاحِبُهُ وهو يُحاوِرُهُ أكفرتَ بالذي خَلَقَكَ من تُرابٍ ثُمَّ من نُطفَةٍ ثم سَوَّاكَ رَجُلاً * لَكِنَّا هو اللهُ ربي ولا أُشْرِكُ بربي أحداً﴾[٢]

٢ - ﴿قد سَمِعَ اللهُ قولَ التي تُجادِلُكَ في زوجِها وتشتكي إلى اللهِ واللهُ يَسمعُ تَحَاوُرَكُما إن الله سميعٌ بصيرٌ﴾[٣]

٣ - ﴿إنَّهُ ظَنَّ أن لَّن يَحُورَ * بَلَى إن ربَّهُ كانَ بِهِ بَصيراً﴾[٤]

ويحور بمعنى يرجع[٥] .

٤ - كما وردت لفظة «الحَواريون» ثلاث مرات[٦] .

ووردت لفظة «الحواريين» مرتين[٧] .

٥ - ووردت لفظة «حور» أربع مرات[٨] ، في وصف حور الجنة لا حرمنا الله تعالى منها.

---

(١) سورة الكهف : الآية (٣٤)

(٢) سورة الكهف : الآية (٣٨)

(٣) سورة المجادلة : الآية (١)

(٤) سورة الانشاق : الآية(١٤)

(٥) راجع تفسير القرطبي، ج٨ ، ص ٧٢٥١ ، دار الغد العربي ط٢ /١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٦) في سورة آل عمران (الآية٥٢)، المائدة (١١٢) ، والصف (١٤).

(٧) في سورة المائدة: الآية(١١١) ، والصف : الآية(١٤)

(٨) في سورة الدخان: (الآية٥٤)، الرحمن: (الآية٧٢)، الطور:(الآية٢)، الواقعة: (الآية٢٢)

تأملات في إطلاقات الحوار في القرآن الكريم :

١ - لم يأت «الحوار» في القرآن الكريم باسم المصدر، وإنما جاء بصيغة الفعل «يحاور»، و «تحاور»، ولهذا دلالة في مفاعلة الحوار.

وهذا في ثلاثة مواضع فقط تفرد بها هذان الإطلاقان.

٢ - أطلق الحوار في القرآن الكريم بمعنى «يرجع» أحد اشتقاقات مادة (حور) في اللغة.

٣ - كما ورد في شأن وصف الحور العين بالجمال والحسن ، وهذا أيضاً أحد إطلاقات الحوار.

ومقصدنا هنا ورود هذه الإطلاقات بالمعاني الثلاثة بما يدل على مراجعة الكلام بين طرفين، ورده وتقليب وجوهه، وبيان الطيِّب من الخبيث، والحق من الباطل، والصدق من الكذب بطريقة هادئة ، وأسلوب لين يعتمد على دلائل الإقناع العقلية، والتذكير بنعم الخالق سبحانه وتعالى، منوطاً بالحرص على بيان وجه الحق ، والخوف من سيطرة الباطل، وأداء حق الصحبة من النصيحة الهادئة.

« الحوار » اصطلاحاً :

لا مرية أن الأصل اللغوي وعاء تنبثق عنه المعاني الاصطلاحية في سائر العلوم والتخصصات ، ولعل هذا سر اقتراب بعض اللغويين في تحليلاتهم من معاني الاصطلاح التي نلمحها في معاجم اللغة خاصة الحديثة منها ، واهتمام بعض القدامى بهذا الجانب ليس بخاف، فقد ذهبوا إلى التأصيل للعديد من المعاني الاصطلاحية في دراسة مفاهيم اللغة ، ولعل كتاب «التعريفات للجرجاني» مثالٌ قويٌ على ذلك.

على أننا قد لمسنا في المعجم الوسيط إشارات معنوية لا تقتصر على كونها محصورة في نطاق اللغة ، وإنما تتجاوزها إلى نطاق الاصطلاح.

ومن خلال ذلك نستطيع أن نحدد معالم الحوار ومعانيه الاصطلاحية وغايته وأهدافه من خلال هذا التعريف.

الحوار ، هو : «مراجعة الكلام بين متحاورين وتقليب وجوهه للوصول إلى معنى ثابت يقطع الخلاف، ويرفع النزاع بينهما ويحملهما على التسليم بأحد المعاني الخلافية».

شرح التعريف :

١ - لفظ «مراجعة» ، «رد» يدل على تبادلية الآراء واعتماد الأخذ والرد والنفي والإثبات بين المتحاورين.

٢ - أما معنى «تقليب وجوهه»ى اشتراك الطرفين في توليد الأفكار والمعاني التي تخدم القضية، وإن كان يحرص كل طرف على إظهار محاسن رأيه في القضية المثارة.

ولهذا دلالة منطقية وعقلية واصطلاحية: أن الحوار لابد أن يكون بين طرفين،أو، عدة أطراف، وأنه يعتمد على التعاون بينهما.

٣ - ويخرج بذلك الحديث الفردي الذي يجول بخلد شخص ما ، فإنه يعد حديثاً نفسياً.

٤ - إن التعريف يحدد الهدف من الحوار، وهو رفع النزاع وقطع الخلاف.

٥ - كما يحدد الغاية، وهي تسليم طرفي الحوار بالراجح من المعاني للوصول إلى حالة الثبات، والاستقرار الذهني،

هذا ، ومما يؤكد ذلك ما جاء في المعجم الفلسفي: «لابد في الحوار من وجود متكلم ومخاطب، ولابد فيه كذلك من تبادل الكلام ومراجعته.

وغاية الحوار : توليد الأفكار الجديدة في ذهن المتكلم ، لا الاقتصار على عرض الأفكار القديمة ، وفي هذا التجاوب توضيح

للمعاني ، وإغناء للمفاهيم ، يفضيان إلى تقدم الفكر»[1].

والأصل في الحوار ، الحرص على التوفيق بين الأفكار، بخلاف الجدل الذي يعتبر الأصل فيه : إفحام الخصم بسوق الآيات والبراهين والأدلة التي تبين خطأه، وتثبت نقيض ما يذهب إليه.

وليس معنى ذلك أن الحوار ينبغي أن يتجرد من الأدلة والبراهين لأنه بخلاف الجدل . . لا بل إن الواجب فيه أيضاً أن يتوفر على ذلك لخدمة عمليتي (الإقناع) و (الإقتناع) ، إذ لا اقتناع بدون دليل، وكيف يسلم متحاور لآخر بفكرة لم يقتنع بها.؟!

ولعل في آيات المحاورة والجدل في القرآن الكريم ما يوحي بالاختلاف بين الحوار والجدل ، أو المحاورة والمجادلة ، وذلك لاختلاف المادة المشتق منها كل منهما في اللغة، وما تقتضيه طبيعة السياق.

الاختلاف سنة إنسانية وكونية :

الاختلاف سنة من السنن الإنسانية والكونية التي استودعها الله تعالى في خلقه، وهذا الاختلاف نحسه في ذواتنا ونشاهده في الكون من حولنا، وحسبنا منه ما يتعلق بذات الإنسان لوضوح دلالاته وتعلقه بموضوع البحث .

أما كونه سنة إنسانية فيرجع إلى ما يلي:

١ - التمايز والتغاير بين البشر.

٢ - تنوع الرغبات والغرائز.

٣ - اختلاف الأهواء والشهوات.

---

(١) المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، ج١، ص٥ دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ط١٩٨٢م.

٤ - اختلاف الطبائع من حيث اللين والحدة، القابلية والمصادرة، الانفتاح والانغلاق، الانعزالية والانخراط.

٥ - اختلاف المشارب، وتغاير الاتجاهات، وتناقض الأفكار في أحيان أخرى، وعوامل الاتفاق ودواعي الاختلاف . . وما إلى ذلك.

الأمر الذي ينشأ عنه اختلاف في الرؤى والتصورات ، ينمو ويتضخم ، حتى يمثل اتجاهاً ، أو مذهباً يستقطب شرائح مختلفة من المجتمع منظرة أو مؤيدة.

في نفس الوقت تفرض الأفكار المغايرة نفسها على الساحة لتستقطب هي الأخرى نظارة ومؤيدين . . ويدور الجدل ، ويحتدم الخلاف ، وتصطلي جذوة النزاع!!!.

٦ - مراعاة «طبيعة» عمل العقل وحقه في الفهم، نصاً ، أو استنباطاً، أو قياساً.

٧ - تفاوت العقول في مراتب الفهم، من حيث المقدرة على الفهم وقوة التصور ، وعمق الفكرة والتجربة الثقافية ، والخبرة الفنية بضروب القول وأفانين البلاغة والبيان ، وفي المقابل بساطة التصور وصعوبة الفهم ، واضمحلال التجربة الثقافية، وغيبة الوعي الفكري ، كل هذا من شأنه استقطاب الناس إلى شرائح قد تمثل أيضاً اتجاهاً أو مذهباً.

٨ - الأديان والمعتقدات والشرائع من حيث الجد والهزل والحق والباطل، والصدق والكذب، واليقين والشك ، مما يستدعي انتصار كل صاحب دين لدينه، وعقيدة لعقيدته.

وآه من هذا الخلاف عندما تعمى فيه وسائل الإدراك ، وينتصر الهوى، ويبرز التعصب ، وخاصة لو كان تعصباً لدين باطل ، أو فكرة واهية ، أو فلسفة زائغة.

٩ - الاختلاف بين أتباع الدين الواحد، مما قد يسمح به الدين لضرورة

الفهم والوعي ، والتوسعة على الناس ، ورفع الحرج والمشقة ، وإزالة الضرر، ورسم تصور واضح لمنهاج الحياة ، والانتصار للأفكار المنضبطة، والرؤى السديدة ، كما يسمح به الإسلام ، لكن يساء فهم ذلك ، مما يؤدي إلى تعميق الاختلاف والانتقال بالأفكار من دائرته إلى دائرة الخلاف.

١٠- اختلاف البيئة ، بما لها من موروثات ، وعادات وتقاليد وأعراف ومبادئ، وتأثيرها في تشكيل العقل ، وصياغة الفكر.

فكم من أفكار وئدت باسم الموروثات البيئية، وكم من حقوق انتهكت باسم الأعراف والمبادئ ، وكم من دماء أزهقت في سبيل الحفاظ على الهوية البيئية.

وقد كان يقتضي هذا بزوغ بعض الآراء التي تعترض على هذه المؤثرات البيئية التي اتخذت في بعض الأحيان ديناً ، وتحول حبها إلى عبادة وتقديس ، مما يجسد منظومة الاختلاف كضرورة ملحة فرضت نفسها على تلك البيئات للتغيير والتطوير ، والبناء الديني والصياغة الحضارية.

١١- اختلاف الألسنة ، وتغاير مناهج التفكير بتأثير اللغات وما تستكنه من حضارات وثقافات.

لهذا كله ، تحتم الاختلاف كسنة إنسانية تميز الإنسان وتلازمه وتأكيداً لهذا يقول الله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1]

وقوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ

---

(١) سورة هود : الآيتان (١١٨ ، ١١٩)

وَٱلوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأيَاتٍ لِّلعَالِمِينَ﴾[1]

واختلاف اللسان لا يعني فقط اختلاف اللغات واللهجات كوسيلة رئيسية من وسائل التخاطب والتفاهم وإجراء الحوار، وإنما ما تتضمنه هذه اللغات من معاني وأفكار وتصورات، وطروحات فكرية ، وأصول جدلية، وقيم حوارية تنتصر على موائدها في النهاية قيم الحق والعدل والخير والجمال، وتندحر مبادئ الباطل ، وترهات الفكر، وزيغ الفلسفات.

وهكذا بدا الاختلاف حتمية تنوعت بتنوع الأمم ، واختلافاتهم، واتجاهاتهم الفكرية.

هذا عن الاختلاف كسنة إنسانية بمعنى التنوع والتغاير والتضاد .على أن التنوع والتغاير يمكن توجيهه لخدمة البشرية، ببناء العقل الإنساني وترشيده وتنمية مداركه وطاقاته وقدراته وإبداعاته عن طريق التأمل والتدبر والتفكر ؛ وقد حثنا القرآن الكريم على ذلك :قال الله تعالى:﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾[2] ، أي لأصحاب العقول السليمة (الناهية عن القبائح) [3]، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[4] ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[5]، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يذكرون﴾[6]

---

(١) سورة الروم : الآية (٢٢)

(٢) سورة طه : الآية (٥٤)

(٣) تفسير الإمام الرازي، مج١١ جـ: ٢٢، ص٦٠ ، ٦١، وروح المعاني للإمام الألوسي، جـ٨ ص٢٨٠، دار الفكر ، بيروت ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م وتفسير ابن كثير ، جـ٣ ص١٥٦، دار التراث ، القاهرة بدون تاريخ.

(٤) سورة آل عمران : الآية (١٩٠)

(٥) سورة الرعد : الآية (٣)

(٦) سورة النحل : الآية (١٣)

المحور الأول : إشكاليات الحوار

إن ثمة مشكلة تلوح في آفاق الحوار ، تتمثل في مدى قابليتنا للحوار، وإمكانيات التنازل عن قضايا معينة، أو عناصر حوارية قد تكون غير مقبولة عند البعض ومقبولة عند البعض الآخر، مما يعوق الحوار.

وعندئذٍ يتحتم التنازل كحل لهذه المشكلات الناشئة عن «التمحور» حول الذات. وما يمكن أن نسميه أيضاً «ظاهرة الطرد المركزي» في أعماق النفس للأفكار المغايرة والمبادئ المناقضة.

على أنه ينبغي أن يفهم أن الحوار لا يعني التنازل عن الأفكار بقدر ما يعني التوصل إلى فكرة واضحة يمكن الاقتناع بها والاعتقاد بصدقها.

وهنا لابد من السماح بتكوين نقاط الالتقاء، وجسور فوق موائد الخلاف يعبر عليها الأطراف المتحاورة، ليحسموا الخلاف وينصاعوا إلى الحق والصدق والعدل.

وأرى أن هذه المشكلة الحوارية «مشكلة نفسية» بالدرجة الأولى ، تغذي صراعات دينية ومذهبية وفكرية ، لأنها تنشأ عن التعصب وتعمقه.

والتعصب «حالة نفسية» يتفرع عنها الانتصار لقضايا الرأي والمذهب، أو ما يمكن أن نسميه «الانتصار المُقَنَّع للذات».

هذا ، وتتلخص إشكاليات الحوار فيمايأتي:

١ - قصور أساليب التربية.

٢ - قصور مناهج التعليم.

٣ - تقصير وسائل الإعلام.

٤ - تسييس الحوار.

٥ - سطوة العادات والتقاليد والأعراف.

٦ - حدة لهجة الخطاب الديني في الآونة الأخيرة.

٧ - تعميق الخلافات المذهبية.

أ - قصور أساليب التربية :

إذا أردنا أن نقيم أساليب التربية في نظام الأسرة فعلينا أن ننظر إلى الأساليب التي يعامل بها الطفل في مراحل نموه المختلفة من قبل والديه ، والمسؤولين عنه ، ومنها:

أ/أ - القمع :

ترى الآباء وكأنهم لا يجدون غير نمطية هذا الأسلوب الذي لم يخلف إلا مزيداً من التعقيدات، ومزيداً من الانغلاق والانزواء للطفل.

وهذا الأسلوب إن لم يكن السائد، فلا أقل من أن يكون الأسلوب الغالب ، إنه : أسلوب القمع والتهديد والوعيد بالضرب والإيذاء والحبس والحرمان.

والسواد الأعظم من المربين يعتمد -وللأسف- هذا الأسلوب القاصر من أساليب التربية مع أولادهم.

ولا مرية أن لهذا الأسلوب مخاطره الكبيرة ، ومشاكله المعقدة التي تترك آثاراً آنية ، ومستقبلية في التركيبة النفسية للطفل والتشكيلة العقلية، والتربية الفكرية لهذا المفترى عليه.

وكثيراً ما نسمع في نطاق أسرنا في مجتمعاتنا التي نعيش فيها جملاً

تحمل هذه المعاني منها: «إن لم تفعل كذا سأضربك» ، «سأمنعك من اللعب والمرح»، «سأحبسك في مكان ما» ، «سأعلقك» ، «سأكتفك أو أربطك» ، «سأتركك وحدك في البيت وأخرج أنا وإخوتك».

نسمع كثيراً من هذه الجمل وغيرها، والتي تثير في نفس الطفل آلاماً وحسرة قد لا يحس بها الآباء، وإن رأوا آثارها بادية على وجه الطفل في لحظات إصدار قرارات الحرمان والتهديد العاتية.

وغاب عن بيوت الكثير من مجتمعاتنا تلك الجمل التي تنبئ بوجود أساليب «حوارية» تخاطب الطفل، وترعى قدراته العقلية وطاقاته الذهنية، وإمكاناته النفسية -وتشجيعه على الحوار ، وتنمية مداركه الفكرية.

وتلك الجمل الإيجابية: «لماذا فعلت هذا؟» ، «لم تفعل هذا؟» ، «إن فعلت هذا ربما كانت له ثمرات طيِّبة» ، «لو لم تفعل هذا سيكون له نتائج سيئة وعواقب وخيمة»، أو «ستحرم خيراً كثيراً».

تلك الجمل من شأنها أن تُفعِّل من إمكانيات مشاركة الأبناء وتنمية قدراتهم ومواهبهم ، وتصل بهم إلى مرحلة النضج المبكر.

١ /٢ - المصادرة :

أسلوب المصادرة واحد من أخطر الأساليب التربوية التي يعامل بها الطفل . . فهي تكبت في نفسه الرغبات ، وتعوِّق الإرادات ، وتجعله في صراع بين ما يجيش بنفسه من معان وآراء وبين الواقع الخارجي خوفاً من مصادرة مربيه لهذا، أو اتهامه بالغباء فيحجم الطفل عن الإفصاح بما في نفسه ، وتتعاقب على آثارها المواقف المتكررة التي قد تجعله فيما بعد عضواً خاملاً وكياناً متبلداً.

ولهذا أثر خطير في تكوين شخصية تتصف بالغباء والتبلد.

ومن يستنطق الواقع يُسْمِعه هذه العبارات على لسان المربي «لا تفعل إلا ما أقول لك».. «لا تتحدث إلا إذا أذنت لك» وإذا أذن له بالتحدث يقول له: «لا تتكلم إلا بما قلته لك»، وإذا تكلم في أمر ما يقول بعنف: «هذا خطأ» .. «أنت لا تفهم».. «أنت غبي».. «لا تعرف كيف تفكر».

وثمة من ينزل به إلى مرتبة «الحيوانية» فيقول: «أنت حيوان» «أنت حمار» .. إلى غير ذلك من الجمل والعبارات التي تصادر الآراء وتكبت الأفكار، وتفجر في النفس ثورات الغضب .

١ /٣ - الإقصاء عن دائرة اتخاذ القرار :

وهذا أيضاً أسلوب لا تخفى خطورته على تكوين الشخصية منذ مراحل النمو الأولى، فكثيراً ما يخطئ المربون عندما يوصدون الأبواب أمام الأبناء حتى لا يعبروا عن رأيهم في اتخاذ قرار مصيري حتى فيما يخصهم، هذا بناء على قرار مسبق هو أنهم «لم ينضجوا» بعد، مع أن هذا لم يكن عن تجربة حقيقية، وإنما عن مجرد الحدس أو التخمين أو الظن.

علماً بأن إشراك الأبناء في اتخاذ القرار يمثل لحظة حاسمة في حياتهم تغمرهم فيها السعادة بأنهم أصبحوا ذوي أهمية ، وقادرين على صنع القرار.

لكننا نجد أن العكس هو الغالب في محيط مجتمعاتنا وداخل أروقتنا الأسرية .. حتى إننا لنسمع فيها هذه العبارات.

ومن ثم فلا تستطيع أن تتخذ قراراً بنفسها، أو تقيِّم قراراً لغيرها فتصير في مستقبل حياتها مخدوعة من السهل توريطها في مشكلات .. أو وضعها في مآزق لا تستطيع عندئذ الخروج منها.

ا /٤ - عدم تهيئتهم لقبول الرأي الآخر واحترامه :

في ظل تلك الأجواء السامة، وأساليب «القمع» و«التهديد» و«المصادرة» و«الإقصاء» لا يعرف الإبن ما يسمى بالرأي الآخر ، ولن يسمح له بالظهور إن تحمل المسئولية ذات يوم ، أو كان أباً لأبناء يتوقون إلى الحوار والنضج العقلي ، لأنه لم يشاهد إلا مصادرات وتهديدات وتوعدات . . إنه لن يسمح للأفكار أن تتنامى أمامه ، ويتفاعل معها . . تخامر عقله ويخامرها ، لأنه لم يتعود هذا ولم يجربه .

ومن ثم ينشأ «ديكتاتورياً» . . «متسلطاً» . . «مستبداً»!! وناهيك عما يترتب على ذلك من مخاطر تضر بالأسرة وينعكس أثرها سلباً على المجتمع.

إن الرأي الآخر سيقابله هؤلاء بما قوبلت به آراؤهم في سابق حياتهم، فينشأ عن ذلك ثورات كثيرة ، واعتراضات وانتقادات غير موضوعية ، وانتقاصات تندفع بدوافع نفسية واجتماعية أفرزتها أساليب التربية البدائية.

وهذا مما يضع المجتمع في صدامات ومواجهات لا تحمد عقباها أو تتسبب في كارثة إنسانية تتمثل في «الكبت» أو «الانزواء» أو «التقوقع» ، فيحيا هؤلاء الأبناء داخل ذواتهم.

وآه لو صادفت رجلاً من هؤلاء مديراً لعمل، أو مسؤولاً في مؤسسة ما . . يا ويل الموظفين والعمال منه، إنه لن يسمع إلا صوته، ولن يسمح بالحوار حتى لمجرد الدفاع عن النفس!!.

ا /٥ - تعقيب :

إذا كان ثمة أخطاء كثيرة في أساليب التربية، فإنما صدرت عن ممارسات ظن أصحابها أنها الأمثل في أسلوب التربية ، أو ظن البعض أنها الأسلوب الوحيد الذي لا يعرفون غيره ، لا عن تعمد إقصاء أساليب

تربوية أخرى أو تعمد الخطأ ، وإنما لأسباب منها مايلي:

١ /٥ - ١ - الأمية :

في الغالب نجد معظم هذه الممارسات ينبع عن ارتفاع نسبة الأمية في مجتمعاتنا . . الأمر الذي يغيب عن كثير من المربين معرفة أساليب التربية ومناهجها وقواعدها أو دراستها ، لأنهم يفتقدون القراءة والكتابة كأداة رئيسة للتثقيف والوعي.

١ /٥ - ٢ الجهل :

جهل كثير من المتعلمين بأساليب التربية له أثره الخطير على الحوار كقيمة تربوية.

٢ - قصور مناهج التعليم :

كان من المفترض والمنتظر أن تحل مناهج التعليم في ميادين التربية تلك المشكلات التي نجمت عن الأمية تارة ، والجهل بأساليب التربية تارة أخري.

ولكن بالعكس فقد تقاصرت مناهج التعليم عن علاج تلك المشكلات وإزالة أسبابها بالقدر الكافي، فإنها إن كانت قد محت أمية الكثيرين إلا أنها لم تمح الأمية في ميادين التربية على النحو المنتظر، والأمل المنشود.

وإذا راجعنا معاً مناهجنا التعليمية، فيما يختص بهذه القضية التربوية سنجد ذلك القصور بادياً نلحظ آثاره في سلوك كثير من المتخرجين الحاصلين على الشهادات العليا ، وأولئك الحاصلين على شهادات متوسطة.

فأين مناهج التربية في مناهج التعليم الفني «المتوسط» والمعاهد العليا؟

بل أين تلك المناهج من التعليم الجامعي؟ أين هي من مقررات كليات القمة مثل الطب والصيدلة والهندسة والعلوم؟

وأين هي من كليات اللغة العربية واللغات والترجمة والألسن وغيرها؟

اللهم إلا إذا استثنينا كليات التربية ، والتي تدرس المواد التربوية في مقرراتها التعليمية، لتؤهل مدرساً تربوياً لكننا نجده في الممارسات الفعلية والواقع العملي متأثراً بتلك الأساليب التربوية الخطيرة التي أثرت في تكوينه منذ طفولته والتي عانا من آثارها في الإطار الأسري والمجتمعي.

وإن كان ثمة مقررات تربوية في كل هذه المؤسسات التعليمية على سبيل الفرض -فأين التركيز على الحوار كمنهج تربوي يفتقر إليه الكبير قبل الصغير، والأب قبل الإبن والمجتمع قبل الأسرة، والأسرة قبل الفرد؟! أين؟!

فهل نسينا أن كل متعلم في أي مرحلة عمرية أو مؤسسة تعليمية، فنية كانت أو جامعية ،سيكون أباً في يوم من الأيام مسؤولاً عن أسرة فلا نعبأ بمقررات تربوية تؤهله لقيادة أسرية ناجحة، وشخصية اجتماعية تربوية فاعلة.

ويبدو أن هذه أزمة مجتمعات عربية وإسلامية عديدة، وليست أزمة مجتمع واحد.

لذا ، فإنني أرى ضرورة وضع مقررات تربوية في خطط ومناهج التعليم في مختلف المراحل ، وليس في كليات التربية فقط ، على أن نؤصل لموضوعاتها ومناهجها ووسائلها وأساليبها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وممارسات الأئمة الكبار ، وفتاوى الفقهاء والعلماء وكذلك ممارسات المفكرين والمثقفين الناضجين.

٢/١ - أسباب القصور :

وربما يرجع ذلك إلى أسباب منها مايلي:

١- عدم تناسب المؤسسات التعليمية من حيث عددها مع عدد السكان.

٢ - «تكدس» الفصول بالطلاب حتى يصل عددهم في الفصل الواحد إلى خمسين طالباً يقل عن ذلك قليلاً أو يزيد.

٣ - ضيق وقت الحصة أو المحاضرة بحيث لا يسع سؤالاً يطرح لكل طالب أو مناقشة فكرة ما .

ولو فرضنا أن الأستاذ تخلص من عقد أساليب التربية القديمة التي ذكرناها آنفاً - فلن يعتمد إلا على التلقين ، ولن يهتم بالحوار والمناقشة، وخطابه بهذا تكليف بما لا يطاق. وفي إطار هذه المنهجية أو السياسة التربوية لن يمكن التركيز على قضية الحوار ، وتغيير مساره ، وطبيعة أساليبنا ومناهجنا التربوية.

٤ - العامل الاقتصادي ويبدو أن هذا العامل يلعب دوراً كبيراً في توجيه سياسات التعليم ، ويؤثر على مناهجنا التربوية وفعالية الأداء في مختلف الأروقة التعليمية، وفي كثير من دول العالم الإسلامي.

٥ - اعتماد بعض مناهج التربية في بعض المؤسسات على نظريات غربية تجافي روح الإسلام ومبادئه وخاصة في بعض الدراسات المتعلقة بالإسلام مثلما هو الحال في الجامعات الخاصة في غيبة الرقابة الرسمية.

على أن هذه المناهج التربوية يجب أن تقوم على أسس تتفق مع الإسلام من حيث الجوهر والشكل ، وليس على أسس تربوية فلسفية

غريبة عن مجتمعاتنا الإسلامية ومتناقضة مع مبادئ الإسلام وتعاليمه[1] بحيث تكون متسمة بالموضوعية والنزاهة، لا تنساق برؤى مذهبية ولا تندفع باتجاهات فكرية.

على أن نركز في هذه المناهج على «الحوار» لما له من أهمية بالغة في التربية ولغيابه من خطورة عظيمة على البيت والأسرة والمجتمع والدولة، وينبغي أن نطلق على هذه المادة العلمية أو المقرر العلمي اسم «ثقافة الحوار» أو «الحوار كمنهج تربوي» أو «تربية الحوار» أو «قيم الحوار التربوية» أو ما إلى ذلك.

ولا يترتب على التقصير في ذلك إلا العودة إلى أساليب القمع والتهديد والوعيد في ممارساتنا التعليمية.

ولا يخفى ما لهذه المنهجية من خطورة على مسار التعليم[2].

٦ - أضف إلى ذلك اعتماد كثير من الدارسين والمعلمين على أسلوب التلقين والتقليد، وعدم إفساح المجال للحوار مع التلاميذ، وإثارة قضايا حوارية لمناقشتها معهم، وتدريبهم على اتخاذ قرار فيها أو القطع برأي ما، حتى ينمي فيهم ملكة النقد الموضوعي وإنشاء الأدلة واستنباط الأحكام.

تنبيه:

وينبغي ألا يفوتني هنا أن أنبه إلى أن غياب هذه المادة العلمية، أو

---

(١) ولا نعني بهذا عدم الاستفادة من ممارسات الآخرين، وإنما نأخذ من ممارستهم الجوانب الإيجابية لنستعين بها في تكوين المادة العلمية والقواعد المنهجية الصحيحة، ونترك السلبيات في ذلك.

(٢) راجع في هذا الفصل الثالث من كتاب إسلامية المعرفة: المبادئ العامة -خطة العمل- الإنجازات ص٥٩-٦٤، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

المنهج التربوي عن مؤسساتنا التعليمية سيفرز عقليات منغلقة تتأثر أكثر مما تؤثر ، وتنفعل أكثر من أن تكون فاعلة ، مما يجعلها فريسة سهلة لمنتهز، أو مستغل أو مضلل ، أو يجعلها رهينة لأي اتجاهات فكرية غالية، أو مفرطة لا تستطيع التمييز بين غث وسمين ، أو جيد وردئ من الرؤى ، والآراء والأفكار والتصورات، مما لا يزيد الطين -كما يقولون إلا بلة- وعندئذ نبكي على «الأطلال» أو نزرف الدمع كما يقال على «لبن مسكوب، ونقول : ياليتنا . . في وقت لا ينفع فيه الندم.

٣ - سطوة الأعراف والعادات والتقاليد :

يعتبر الخضوع لسلطان الأعراف والعادات والتقاليد واحداً من أخطر العوامل التي هددت -ومازالت تهدد- «الحوار» كمنهج فكري تربوي إسلامي . . حيث إنها تؤصل النزعة الأحادية ،والانغلاق على مبادئ قد تتعارض مع العقل، وتنقض عرى الدين ،وتهدم قواعده ، وتصطدم بأصوله.

إنها لا تتعارض فقط مع العقل ، وإنما تكبله وتعوقه عن التأمل والتدبر، وتأسر وسائل الإدراك، وقد تعطلها، فتعمّى بذلك على العقل قضايا الحق ، وتنزوي به بحيث لا ينفتح على الآراء الأخرى، ولا يقبل الآخر ، مهما كان بجانب الحق يسوق له الأدلة والبراهين ، ويصوغ المقدمات ، ويستخلص منها نتائج مصداقيته وواقعيته.

وقد حذر القرآن الكريم من خطورة هذه النزعة الطاغية ، وبين أنها مرض أصاب الإنسان في مقتل . . أصابه في عقيدته ودينه. . وصلته بربه وخالقه . . إذ رفع سلطان العادات والتقاليد على سلطان الدين ، وأصم عنه أذنه، وأعمى قلبه.

وفي ذلك يقول الله تعالي في شأن المشركين الذين ألفوا العادة

وجعلوها ديناً: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[1]

وقال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾[2]

إنها تعوق كل وسائل إنجاح الحوار ، وتعمق الانتصار للهوى والذات، وتصادر آراء المغايرين، بل تصادر رسالات الأنبياء عليهم السلام، وتوئد كل فرصة تسنح للجدل المحمود ، والنقاش الهادف البناء.

ولعله مما يجسد كل هذه المعاني قول المنكرين لقضايا الدين ومن بينها البعث «إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع»[3]

ولقد صور القرآن الكريم هذا الموقف العقدي الفاسد بقوله: ﴿وقالوا إنما نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾[4]

قال الله تعالى: ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾[5].

إنه أمر يريد لصوت الحق أن يظهر، وأن يمحي كل المعوقات والمثبطات

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٠

(٢) سورة لقمان: الآية ٢١

(٣)- روح المعاني للإمام الألوسي ، م مج١٣ ص ١٧٠، جـ٢٥، ص١٥٣، مرجع سابق،

- وجامع البيان في تأويل القرآن للإمام الطبري جـ١١، ص٢٨٣، ٢٨٤.

(٤) سورة لقمان : الآية ٢١

(٥) سورة الجاثية: الآية ٢٤.

من أمام موائد الحوار الهادف ، والتفكير الصادق لضمان نتائج موضوعية، وتصورات واقعية وأحكام صادقة.

ومهما ضعف سلطان العادات والأعراف والتقاليد، والضغط الاجتماعي ، فإنه مازال حتى الآن يمثل عقبة أمام إنجاح الحوار، ومازال يمثل أحد المشكلات التي تؤثر على بعض الأوساط ، إذ ما زال يوجه بعض الآراء، وينميها ويشكلها.

على أن تأثيره يرتبط وثيقاً بالأمية والجهل وعدم المبالاة.

٤ - تقصير وسائل الإعلام في كثير من بلاد الإسلام :

لقد ظلت وسائل الإعلام على مدى عشرات السنين تمثل مشكلة أمام «ثقافة الحوار» ، ولعل ذلك يتمثل فيمايأتي:

١- زيوع نزعة «الواقعية» في تصوير الوقائع والأحداث ومعالجة المشكلات.

٢ - الترويج لنظرية «البقاء للأقوى» في المواد التثقيفية والأعمال الأدبية والفنية، مما أزاح محاولات الحوار ، وأثر عليها تأثيراً مباشراً . . مثّل وسيلة لفرض الرأي ، وفرض أسلوب الحياة بعيداً عن أجواء الحوار، وجعلت من العنف وسيلة وحيدة للتخاطب وأداة للانصياع والتبعية.

٣ - تصوير العقل الغربي بصورة تتخاذل أمامها العقلية العربية والإسلامية!!، فالعقل الغربي . . ذكي . . قادر على التفكير . . يخطو نحو العبقرية، أما العقل العربي والإسلامي فهو عقل «ساذج» . . تصوراته فجة . . ومدركاته واهية ، لا تؤصل نهضة ولا تقيم حضارة!! . مستغلين أو منخدعين بالحضارة الغربية المادية ، وبتقدمها التقني والتكنولوجي الباهر مما جعلهم يظنون أن كل ما يأتي عن الغرب من فلسفات وأفكار يضاهي

من حيث القوة تلك القوة «المادية» الغربية، أو القوة «التكنولوجية» .

وقد عمق هذا التخاذل لدى البعض الشعور بـ«الدونية»، فأصبح النشأ وقطاعات عريضة من الجماهير الذين يتأثرون بهذه «الثقافة الإعلامية» تائهين حائرين، مما أفقدهم الثقة في معطياتهم الفكرية وأطروحاتهم الثقافية، بل ربما أفقد البعض الثقة في قدرته على إدارة الحوار وتوجيه ملكات النقد ووسائل الإدراك لنقد الفكر الغربي، مما دفعه إلى الارتماء في أحضانه، ونحت تصوراته الفكرية عن الإسلام وحضارته، من هذا الفكر وتقديمها على أنها صورة مثلى للفكر الإنساني.

٥ - عدم الاعتناء بالحوار كمنهج تربوي :

وكذلك نجد المواد الإعلامية المطروحة في العديد من الدول الإسلامي لاتهتم بالحوار كمنهج تربوي، وركيزة رئيسة من ركائز بناء أسرى ناضج وفعال، قادر على المشاركة الفعالة والعطاء المثمر.

ومع أننا لا نعدم أن نجد بعض شارات دلالة الحوار في هذه المواد الإعلامية، فإننا نجد أنها استخدمت كوسيلة مروق من القيم والمبادئ، والعادات والتقاليد وتأصيل «ثقافة التحرر» وفقاً -وللأسف- للأنماط الغربية، والثورة على بقايا الحياء الذي يحفظ للأسرة عفتها وللمجتمع طهارته.

ولا مرية أن لهذا الاتجاه ثمرات خبيثة في المجتمعات الإسلامية كادت تؤدي في النهاية في المشاريع الأدبية إلى عقوق سافر للآباء.

وتستطيع أن تلمس هذا إذا قرأت التاريخ المعاصر ومقتضياته الإعلامية قراءة متأنية ناقدة وخاصة في مراحل طغيان الشيوعية وتسلط الرأسمالية، وما تمخض عن هذه الحركات من مذاهب فلسفية حاولت إعادة تشكيل العقل العربي والإسلامي، وصياغته وفقاً لمنظور شيوعي وآخر رأسمالي.

أضف إلى ذلك تلك الاتجاهات ذات الصلة المباشرة بهذين المذهبين ، والتي حاولت صياغة المجتمعات العربية والإسلامية صياغة تعتمد على نتائج هذه الفلسفات، الأمر الذي أصل في المنظومة الإعلامية المتأثرة بها سياسة «التجريد» و«التعرية» . . ترويج الرذيلة ومحاربة الفضيلة.

وفي خضم هذا المعترك الثقافي والفلسفي برز الحوار في المواد الإعلامية ليتصر للتحرر، وترسم خطا المجتمعات الغربية في البناء الأسري والاجتماعي، مما أفقده قيمته كمنهج تربوي إسلامي.

وبهذا تكون وسائل الإعلام في العديد من الدول العربية والإسلامية أسهمت في قصور منهجية الحوار كتربية أسرية واعتمدت في ذلك سياستين هما:(١- التغييب) ، و(٢- التوجيه المغرض).

٥ /١ - حضور بعد غياب :

وفي ظل سياسة تدارك الأخطاء، وتضخم آثار تغييب الحوار، أو توجيهه توجيهاً مغرضاً، وإصابة المجتمعات في إصابات خطيرة أحدثت هزة كبيرة - في ظل ذلك - لكيانها ،حاولت وسائل الإعلام، وتحاول منذ فترة قصيرة بضرورة إعادة هيكلة الحوار الإعلامي، وإدارة برامج حوارية ناجحة لإعادة العقل الذي أعياه تغييب الحوار وتوجيهه ، في خطوة لاحترام عقلية الجماهير وإنضاجها بعد فترة «التيه» التي سببتها لهم اتجاهات إعلامية سابقة.

ونحن نمتدح هذا الاتجاه، وندعم تنميته وإنجاحه.

على أن هذا قد يرجع إلى إدراك خطورة التشدد الفكري والغلو المذهبي.

ولكن ، ومع هذه الانفتاحية نجد أن بعض أطراف الحوار في البرامج

الحوارية لم يرتقوا إلى الأسلوب الأمثل في التعامل مع الآراء المغايرة والمخالفة ، حيث مازال التعصب للرأي هو المسيطر على موائد الحوار.

وتأتي مشكلة «تعميم الأحكام»، «اتهام المغايرين والمخالفين في الرأي بالخطأ المطلق» لتوصد كل أبواب الحوار التي فتحت بعد غياب ، ولا يخفى ما لهذا الأسلوب من خطورة على عقلية الأطفال والنشء ، الذي يتعطش لمعرفة وجه الحق، كما لا يخفى تأثيره على أساليب تفكيرهم في الحياة مما يجعلهم يتجهون إلى أحد اتجاهين: (أولهما: اتجاه مغال)، و (ثانيهما: اتجاه مفرط)، ويضيع الحق بين الاتجاهين، وتلك «إشكالية الحوار الإعلامي» في طور المولد.

إننا يجب أن نرتقي في سياستنا الحوارية، وأن نسمح بالاختلاف.

فالاختلاف سنة إنسانية، وخاصة أنه لا يعني بالضرورة أن تصطدم الآراء، بل بالعكس ، إنه يثري التنوع الفكري البناء الذي يرفع الحرج والمشقة عن الأمة ويسهم في بناء نهضة حضارية فاعلة.

وديننا يسمح بأن نختلف في الرأي بشرط: «عدم تعمد الخلاف»، طالما كان الاختلاف ناشئاً عن نية حسنة، في محاولة التوصل لفهم أعمق للقضية المثارة للجدل.

وهذا هو الذي يثمر ثمرات طيبة في تربية عقول أبنائنا وإعادة الحوار كمنهج تربوي إلى الأسرة، لحل المشكلات عن طريق التفاوض . . لا عن طريق العنف والاستبداد الذي مازال العديد من المجتمعات يعاني منه حتى الآن.

٣/٥ - لا للتكفير والتجهيل :

ونحن نرفض ، كما يرفض غيرنا أن يتخذ الحوار وسيلة للتكفير

والتخجيل والتجريح والطعن، لمجرد الاختلاف في الرأي ، ومن يتجه هذا الاتجاه لم يفهم ثقافة الحوار في الإسلام، فهي تقوم على (التنوع والتعددية) [1]. كما أنه لم يفهم شروط التكفير!! . . فالتكفير له شروط لا تتوافر بالضرورة في الاختلاف ،وله بينات وأمارات لا يمكن تطبيقها على الحوار والمخالفين في الرأي.

وفرق بين الخلاف في العقيدة والخلاف في الرأي.[2]

فيجب علينا إذن أن نوفر للحوار جواً هادئاً ملائماً، حتى نكفل له أكبر قدر ممكن من النجاح، قال الله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾[3]

٦ - تسييس الحوار :

يعتبر تسييس الحوار أحد أخطر العوامل التي تؤدي إلى أزمة حقيقية على موائد الحوار ، عندما يشعر أحد أطراف الحوار أن الحوار يوجه من قبل الطرف الآخر لخدمة أغراض معينة وليس لصالح القضية المثارة للمناقشة. !!

كما يؤدي هذا إلى إحداث «هوة عميقة» في المجتمعات يفقد الحوار على أثرها قيمته كوسيلة لحل النزاع والخلاف، مما يؤدي إلى فقدان الثقة في موضوعات الحوار الموجهة.

---

(١) وإلى هذا أشار: د. القرضاوي ، في الحل الإسلامي بين الجمود والتطور، حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة قطر ، ص ٣٣ العدد الرابع، مطابع الدوحة الحديث، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

(٢) راجع في هذا الموافقات للإمام الشاطبي، مج٢حـ٤، ص٥٦٦ ومابعدها، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ط(٣) ١٤١٧هـ -٩٩٧م. وإعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية جـ١ ص ٨١ ، وما بعدها دار الحديث ط(٣)١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

(٣) سورة العنكبوت : الآية٤٦.

ناهيك عن ملل المثقفين والنخبة من ذلك، والإحباط الذي ينتابهم عندما يشعرون أن الحقيقة تُعمَّى أو تغيب ، وأن الهدف من الحوار الانتصار لأهداف معينة ، ومحددة سلفاً!!

٦ / ١ - تعقيب :

ليس شرطاً أن تجتمع كل هذه الأسباب في وقت واحد لتمثل مشكلة، وإنما يكون توافر أحد هذه الأسباب كفيلاً بإحداث أزمة بالغة في مجتمع ما.

وقد اتضح مما سبق أن هذه الأسباب دفعت العديد من الأفراد للتقوقع داخل النفس ، والانكفاء على الذات، والتعصب للرأي وإدارة الأزمات بنظرة أحادية، ومحاولة فرض الآراء والهيمنة والاستبداد، وغلق كل نوافذ الحوار الهادف البناء، وتفويت العديد من الفرص لحل المشكلات ، وإدارة الأزمات بانفتاحية وواقعية وموضوعية.

وفي ظل تلك الأجواء نشأ المفكر والمثقف والاقتصادي والاجتماعي والفنان والمبدع . . وغيرهم، فمنهم من تشبع بها ، ومنهم من تخفف من أعبائها ونادر من تخلص منها.

وفي ظل تلك الأجواء نشأ التعصب للرأي، والتشدد والغلو ، كما نشأ في ظلها اتجاهات التحرر والإباحية ، وفي ظل ذلك لن نستطيع أن ندير «حواراً ناجحاً» يزول على أثره الخلاف وتنحسم به القضية!!

وهكذا أوقفت هذه الأسباب المجتمع على أزمة حقيقية لا يمكن علاجها بسهولة ، فهي تحتاج لوقت طويل، وإعداد جيد، ومنهجية واعية حتى نقضي على أسباب المشكلة، وندعم العلاج.

ويتمثل العلاج في إعادة صياغة لنظام التفكير يترتب عليه صياغة

جديدة للعقل، وبناء جديد للنفس ، وتغيير لنظام المجتمع التربوي ونمطية التعليم . . الأمر الذي يستوجب إعادة النظر في هيكلة ومنهجية المؤسسات المجتمعية والتعليمية، على أن يتم هذا وفقاً لتصورات إسلامية تتسم بالاعتدال والوسطية، وتبتعد عن الجمود والتشدد، والتفريط والتوهين.

٧ - تعميق النزاعات والخلافات المذهبية :

ليس معنى أن الإسلام يبيح الاختلاف في الرأي، لإثراء التنوع الفكري والثقافي الذي تتحمله نصوصه المصدرية، أنه يعلي من قيمة الخلافات لتصل إلى نزاعات، أو أنه يفتح الباب للخلاف ليصير نزاعاً لا يحتكم إلا إلى هوي المذهب، ونزعاته فيؤصل للتحزب أو التشرذم في الأوساط الإسلامية، ويتحول من اختلاف يثري التنوع الفكري إلى خلاف يتمحور حول المذهب، ثم يجعل من المذهبية صراعاً ضارياً يشوه الأفكار، وينال من العقائد، ويحول هدوء المجتمعات إلى ثورة عاتية.

لكن -وللأسف- هذا ما حدث بالفعل في تلك الأوساط التي لم يرد لها الإسلام أن تتأثر بهذه المؤثرات . . وشيء لعقول الناشئة أن تنمو وتترعرع على موائد الخلاف الحاد، والمذهبية النزاعة، فنهضت عقول تعشق الخلاف. . تأبى التنازل عن موروثاتها الفكرية ومؤثراتها الثقافية.

فرأينا وللأسف من يتعصب للمذهب الشيعي ، كما لو كان هو الدين الذي أنزل على رسول الله -محمد صلى الله عليه وسلم- ويأبى مجرد التجرد من هذا التعصب عندما يراد منه الاقتناع وتحكيم الشرع والعقل!!

ورأينا السني ينظر إلى الشيعي على أنه مخالف لبعض الأصول الإسلامية فيما يختص ببعض قواعد الاعتقاد والتشريع، ويرى أنه صاحب حق في هذا، ويقدم على ذلك دلالات قاطعة!!

ورأينا الخلافات حول «قضايا الاعتزال» تؤصل لنزعتين:

(الأولى: القبول المطلق)،

و(الثانية: الرفض المطلق).

وإن سلمت من هذا الخلاف فئة تأخذ الحق ، وما ثبت بالأدلة القطعية والصحيحة من تلك القضايا، مع أن الاختلاف في الرأي كان لخدمة الأمة، ورفع الحرج والمشقة عن المسلمين.

رأينا كل صور هذا الخلاف حتى باتت -وللأسف- تستعصي على الحل . . رغم جهود المفكرين في التقريب بين المذاهب من القدامى والمحدثين. . لا لشيء إلا لبقاء نزعة التعصب والمذهبية.

وماذا ينتظر من عقلية تنشأ وترعرع في هذه الأوساط، وترى صوت الخلاف يعلو، ولم تجد استعداداً من كثير من المخالفين للتنازل عن آرائهم المذهبية إلى ما هو حق؟! حتماً سيكون لهذه الخلافات تأثيرات واضحة وعميقة على «قضية الحوار» في عقلية الأجيال، وإمكان التخلي عن بعض الرؤى لما هو أفضل.

٨ - حدة لهجة الخطاب الديني في الآونة الأخيرة :

تعد حدة لهجة الخطاب الديني في الآونة الأخيرة إحدى أخطر المشكلات التي تعترض قضية الحوار، وتؤصل للمحورية أو القطبية، أو بالأحرى التمحور حول الأفكار واستقطاب الجمهور لها.

ونستطيع أن نلمس هذا من خلال تحليلنا لكثير من خطباء المساجد. . وخاصة غير المؤهلين دعوياً في ممارساتهم الدعوية ، كما نلمسها في كثير من الفتاوى [1] ، التي تتسم بالتشدد ، أو تلك التي تركن إلى التكفير

(١) وإلى هذا أشار الدكتور عماد الدين خليل في كتابه رؤية إسلامية في قضايا معاصرة، ص٢٢ كتاب «الأمة» ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، دولة قطر ، عدد ٤٥، المحرم ١٤١٦هـ ص ١٥

والتفسيق حتى غلب على الوسط الدعوي طابع «التهديد» و«التكفير» و«الوعيد» و«الإيياس» ومصادرة النعيم ، والغلظة والجفوة»، وكادت تختفي لهجة البشارة والترغيب والبشاشة والتلطف، مع أن الإسلام جمع بين كل هذه الأساليب في مجال الدعوة طبقاً لمقتضيات الأحوال!!

وتخيل وسطاً كهذا فيه عقول ناشئة تستمع إلى كثير من المواعظ والخطب التي يغلب عليها هذا الطابع المفتعل أو المتوهم فماذا عساها أن تكون؟! . . هل تكون عقلية تنفتح على الآخرين؟!

إنها تنظر للآخر بمقتضى هذه المؤثرات على أنه كافر، أو جاهل، أو فاسق ، أو أنه من أهل النار.

وقد تكون هذه الأحكام لمجرد صغيرة يرتكبها، ونحن لا نهون من الصغائر -معاذ الله- ولكن نبين أنها لا تستحق هذه الأحكام، و ربما تكون هذه الأحكام لعوامل نفسية أو مؤثرات فكرية!!

إنه عقل ينشأ في ظل«لهجة حادة» في الخطاب الديني تعتمد على كلمات تنفر أكثر مما تؤلف، وتفرق أكثر مما تجمع، وتغلظ أكثر مما تتلطف، فماذا ينتظر منه؟!

إنه لن ينتظر منه إلا «الانغلاق» عن هؤلاء، أو «النفور» منهم ، ومصادرة الحوار معهم!!.

فكيف يتحاور مع كافر؟! بل كيف يجلس مع فاسق؟! مع أن الدعوة ميدانها الخصب هو : ساحات الكفر والفسوق وأنديته.

وترجع حدة لهجة الخطاب الديني إلى أحد الأمور الآتية:

١ - عدم فقه الواقع فقهاً جيداً.

٢ - عدم فهم منهج الدعوة وأساليبها ووسائلها فهماً دقيقاً.

إذ يستخدم الخطيب، أو المتحدث «الترهيب والوعيد» في موضع ينبغي ألا يستخدم فيه إلا الترغيب والبشارة.

ومن ثم قال بعض الباحثين: «إن وجود قدر بسيط من الثقافة الإسلامية المترافق مع الحماس والانتصار العاطفي للإسلام والإخلاص في الرغبة لنصرة الدين ، وانتصاره لا يؤهل صاحبه ليكون من «النخبة» أو من «أهل الحل والعقد»، ولا يجعله أهلاً للفتيا في النوازل والمشكلات التي تعرض للحياة الإسلامية، ولا يجعله فقيهاً قادراً على الموازنة والمقارنة والمقايسة والترجيح بين الأدلة، وتقدير الاستطاعة والنظر في محل الحكم، فكثير من المخلصين والمتحمسين والعابدين في تاريخنا العلمي والثقافي رد العلماء حديثهم، لأنهم ليسوا من أهل الحفظ والضبط . . أي ليسوا من أهل الفن «الاختصاص المطلوب، ولم تشفع لهم حماستهم، ولا إخلاصهم في قبول حديثهم .»[1]

إذن فالمشكلة تكمن فيما يلي :

١ - عدم فقه الواقع.

٢ - عدم الدراية مع الرواية: إذ يجب على كل داع أو محاضر أو متحدث عن الدين أن يفهم متى يُرَغِب؟ ومتى يُرَهِب؟ ومتى يُنْذِر؟ ومتى يُبَشِّر؟ وأن يكون متخصصاً شرعياً حتى تنضبط فتاويه.

٣ - المؤثرات الفكرية: ويعنى بها التأثر بأفكار معينة ، ومحاولة الانتصار لها.

٤ - الانفعالات النفسية: وقد ترجع «حدة لهجة الخطاب الديني» إلى انفعالات الخطيب أو المتحدث النفسية، فيخرج انطباعاته عن شخصية معينة في صورة خطاب ديني يجمع لها ما توهمه من

---

(١) رؤية إسلامية في قضايا معاصرة، ص٢٢، ٢٣، مرجع سابق.

أدلة، ولا يعدو كونه تنفيساً عما يدور في نفسه!!.

ويبقى غياب ذلك مشكلة تُصَعِب من مهمة الداعي أو الخطيب، أو المتحدث، أو المفكر ، أو المثقف الذي يمارس الدعوة إلى الله تعالى ، ويضطلع بأعبائها.

ولا يخفى ما لهذا من خطورة بالغة على إثراء الحوار والنهوض بواقع الأمة الفكري وإنقاذه من مخاطر الانقسامات والآراء المنغلقة والتمحور حول الأنا ورفض الآخر.

هذا وفي المحور التالي أتناول معالجة القضية.

المحور الثاني : معالجة القضية

لا مرية أن علاج قضية ما يتمثل في أمرين:

أولاً - إزالة إشكاليات القضية.

ثانياً - طرح البديل الموضوعي المنهجي.

أولاً : إزالة إشكاليات القضية

أما عن إزالة إشكاليات القضية فأرى أنه لابد من توفير الآتي حتى يتم القضاء نهائياً على الأسباب والمبررات غير الموضوعية والتي أدت إلى تلك الإشكاليات.

١ - ضرورة التركيز على «منهج تربوي» يؤصل للحوار وتدريب الطلاب في مراحل التعليم من خلال عقد منتديات ثقافية على ذلك ، حتى نرسخ في أذهانهم ضمنية قبول الآخر طالما لم يصطدم مع أصل ديني أو تشريعي ، وحتمية التعايش في ظل الاختلاف.

٢ - ضرورة عقد منتديات تثقيفية توعوية للمربين وخاصة الآباء والأمهات الذين لم يدرسوا مناهج التربية ، ولم يعنوا بها من قبل لطرح «قضية الحوار» كمنهج إسلامي حضاري تربوي ، وأن ينبههم إلى الأخطاء الناجمة عن تغييب الحوار عن «المحيط الأسري» وآثار ذلك على سلوكيات الأبناء ، بالإضافة إلى التأثير في طريقة تفكيرهم ، فضلاً عما يحدثه هذا من هوة سحيقة بين الآباء والأبناء، وبين الأجيال المتعاقبة، مما

من شأنه أن يقضي على إمكانات التلاقي.

٣ - ضرورة اهتمام وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة ببرامج الحوار بصورة أكبر وأعمق بكثير مما هي عليه الآن، فهي من أسرع الوسائل وأفضلها لما تتسم به من الشمولية والتنويع والذيوع والانتشار والتأثير، ليس فقط على فئة واحدة من فئات الشعب ، وإنما على سائر فئاته المثقف منهم والعامي ، القارئ والأمي ، المدقق والسطحي ، المُنَظِّر والمقلِّد.

٤ - ضرورة احترام قيم الحوار وتجريده من النزاعات والأهواء والبعد عما من شأنه إفساد الحوار من تسيس أو إغراض حتى نستعيد ثقة الجماهير وندفعهم إليه دوماً.

٥ - ضرورة طرح الآباء والأمهات موضوعات للحوار ولو موضوعاً كل أسبوع يشركون فيه الأبناء، على أن يكونوا عاملاً مساعداً لهم فقط، ويتولى الأبناء إدارة الحوار بالتناوب ليتعودوا على محاورة الآخر، وحل مشكلاتهم عن طريق الحوار، وبذلك نجنبهم الاتجاه إلى العنف كبديل حتمي عند تغييب الحوار.

٦ - ضرورة التخلص من سيطرة الأعراف والتقاليد والمبادئ التي تؤثر في عقلية الأمة سلباً والتي تمثل عائقاً أمام الحوار .

٧ - حتمية دراسة مناهج الدعوة وأساليبها ووسائلها جيداً.

ثانياً : طرح البديل الموضوعي المنهجي

بعد إزالة أسباب «مشكلات الحوار» كان لابد من وضع تصور عام للبديل المنهجي لمنهجية الحوار التي أحدثت الأزمة، وفعَّلت من خطورتها على الانسجام الفكري، وهددت جسور الالتقاء بالانهيار إن لم تكن قد قضت عليها بالفعل.

وإذا تأملنا دعوات الرسل ومواقف الصالحين والصادقين في القرآن الكريم من أقوامهم وسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سوف نجدها غنية بالعناصر الحوارية والقواعد المنهجية، والمبادئ التي تحتم رفع الخلاف، وإدارة حوار هادف.

والمقام لن يسع سرد كل هذه الدعوات الصادقة، لذا نكتفي بتوضيح ذلك فيمايأتي:

اعتمدت منهجية الحوار في القرآن الكريم والسنة الشريفة ، على مايلي:

١ - تهيئة جو الحوار ، وذلك بإزالة معوقات الحوار ومثبطاته.

٢ - التجرد للحق والصدق والعدل.

٣ - احترام الخصم وتقديره للقضاء على الحاجز النفسي الذي يعوق إنجاح الحوار.

٤ - إمكانية أن يكون أحد الطرفين على خطأ والآخر على صواب، وينبغي قبول ذلك كمقدمة عقلية حتى لا يقضى على الرأي بالخطأ قبل رفعه للقضاء ، وترك ذلك لحسمه بالأدلة والبراهين.

٥ - عدم سب المخالفين في العقيدة ، ومحاولة كسب مساحة على أرضهم ولو شبراً واحداً.

٦ - الصبر على الخصم في إدارة الحوار ، ومحاولة امتصاص انفعالاتهم.

٧ - عدم مصادرة الآراء بفتح منفذ للحوار مرة ثانية يعود منه المتحاوران إلى الحوار إذا فشلا في إنجاحه.

٨ - إعطاء فرصة للعقل ليفكر بتؤدة وروية في القضايا المثارة وطرح القضايا الكبرى والحقائق الكلية أمامه لضمان سلامة الحكم في ظل النص الشرعي والقواعد الأصولية التي تضبط منهج التفكير.

٩ - مجرد ميل المخالف إلى الفكرة الصحيحة مكسب كبير يجب تنميته لاحتوائه وكسب رأيه كلياً للوجه الصحيح في القضية.

١٠- تحينُّ الفرصة المناسبة للحوار.

١١- عدم إجراء الحوار في الأوقات التي يكون الخلاف فيها محتدماً، حتى لا نفسد فرص الالتقاء ، فالفكر الهادي حري بأن يوصل المتحاوران إلى نتائج إيجابية محمودة.

١٢- التلطف في القول، وتجنب الإغلاظ فيه ، لما لذلك من أثر كبير في جذب القلوب وتهيئة النفوس.

١٣- إجراء الحوار بعيداً عن الاتهامات والتعصب ومجاوزة الحد والاتجاه به إلى الحلول لا إلى تفعيل الخلاف.

وهذا مستنبط من قصة إبراهيم عليه السلام وموسى وعيسى وصالح وشعيب ولوط وأقوامهم ، ودعوة رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- لقومه ورسائله إلى أهل الكتاب، ووفد نصارى نجران، ومؤمن آل فرعون، والعبد الصالح، والسيدة مريم -رضي الله عنهم جميعاً- وغير ذلك من قصص ومواقف حوارية أخرى لن يسع المقام لذكرها هنا.

وليكن لنا في سلفنا الصالح العلامة السيد رشيد رضا -رحمه الله- الأسوة الطيِّبة ، صاحب قاعدة « **نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه** » ، وهي قاعدة مستنبطة من هداية الكتاب والسنة ، وهدي السلف الصالح ، وإملاء الواقع وظروفه وضروراته ، وحاجة الأمة الإسلامية إلى التلاحم والتساند.

المراجع

أولاً : القرآن الكريم

١ - تفسير القرآن العظيم ، للإمام بن كثير، دار التراث، بدون تاريخ.

٢ - تفسير القرطبي، دار الغد العربي، ط(٢)١٤١٦هـ -١٩٩٦م.

٣ - جامع البيان في أحكام القرآن للإمام الطبري، دار الغد العربي بدون تاريخ.

٤ - روح المعاني للإمام الألوسي، دار الفكر، بيروت ، لبنان ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٥ - مفاتيح الغيب للإمام الرازي، دار الكتب العلمية، ط(١) ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

ثانياً : السنة الشريفة

٦ - سنن الإمام ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية ، بدون تاريخ.

ثالثاً : المراجع العامة

٧ - إسلامية المعرفة: المبادئ العامة -خطة العلم- الإنجازات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٨ - إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، دار الحديث، ط(٣) ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٩ - الموافقات : للإمام الشاطبي، دار المعرفة ط(٣) ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

رابعاً : المعاجم

١٠ -المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بروت ، لبنان ١٩٨٢م.

١١ -المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية، ط(٢) ١٩٦٠م ، القاهرة.